دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	القدس مشاهد الفتح و العمارة : استقراء للبعد المعماري في أعلاق بن شداد
المصدر:	مجلة معهد المخطوطات العربية
الناشر:	المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - معهد المخطوطات العربية
المؤلف الرئيسي:	عبدالمنعم، بغداد
المجلد/العدد:	مج 53, ج 1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2009
الشهر:	مايو - ربيع الاخر
الصفحات:	71 - 99
رقم MD:	343617
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, AraBase
مواضيع:	ابن شداد ، عز الدين، كتاب الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، المدن الشامية، القدس، العمارة الاسلامية، الحروب الصليبية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/343617

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

القدس: مشاهد الفتح والعمارة

(استقراء للبعد المعماري في "أعلاق ابن شداد")

د. م. بغداد عبد المنعم(*)

ثمة حقائق مختبئة طوتها حكمة التاريخ، ربما لتترك الحاضر في واقعيته ولحظته ومشكلته، غير أن ما يقدمه التاريخ هذه المرة يصلح أن يشكل نقداً لواقع، وجغرافية جديدة نسبياً، إذ إن ما يقدمه هو تاريخ لبلاد الشام في القرن السابع الهجري. ففي هذا الجزء المهم والنادر من كتاب " الأعلاق الخطيرة " يحط المؤرخ المجدد ابن شداد رحاله وأقلامه في لبنان والأردن وفلسطين، ليقدم الخارطة السياسية والطبوغرافية للمدن الشامية في القرن السابع الهجري.

وكان قدم في جزئه الأول بقسميه تاريخ جند قنسرين وجند حمص وجند دمشق، وتاريخ مدينة دمشق. لكنه في هذا القسم موضوع هذه البحث يقدم – مع بقية المدن الشامية – مدينة القدس منذ ثمانمائة سنة، ضمن الخارطة التاريخية لذلك الزمان، وفي تأريخ معماري تناول تكوينات من المدينة، في حركية تأريخية مثيرة، كان من بين مضموناتها توصيف التشكيل المعماري المقدسي الذي كان يتغير نسبياً خلال الحروب الصليبية والفتوح الصلاحية والأيوبية للمدينة.

وسوف نحاول في هذا البحث التقاط هذه اللحظة (القرن السابع الهجري) من عمر القدس، الذي قارب أربعة آلاف عام. تاريخ طويل قبل القرن السابع الهجري من عمر هذه المدينة العريقة، وتاريخ شاسع بعده، وتكوينات معمارية علت وتحاورت، وربما تهاوى بعضها ثم أعيد بناؤها مرات عديدة، لتشكل تاريخها، ليس من حيث شكل هذه التكوينات أو مادتها، ولكن من حيث جغرافية مكانها الجبلي بين كتلتي جبال الخليل ونابلس اللتين تفوقانها ارتفاعا، وإن كانت هي أكثر حصانة وأهمية.

(*)باحثة في تاريخ الهندسة العربية الإسلامية.

(الكامل) في تاريخ بلاد الشام... عدة تحقيقات:

وضع عز الدين بن شداد المتوفى سنة (684هـ) كتاب "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة"، وقد حقق هذا الكتاب المهم وطبع بكامل أقسامه في سنوات مختلفة، وقام بتحقيقه أكثر من محقق ؛ فالدكتور سامي الدهان يتحدث عن تجربته – التي تعود إلى خمسينيات القرن الماضي– من خلال تحقيقه للجزء الثاني من الكتاب بقسميه : تاريخ دمشق، ثم تاريخ لبنان والأردن وفلسطين. يقول في مقدمة القسم الثاني من هذا الجزء الثاني: "ولكن أجزاءه تفرقت نسخها في أطراف المعمورة، فاستلبت كل خزانة من خزائن الشرق والغرب جزءاً من كتابه الكبير، وقام الدارسون بوصف مخطوطات الأجزاء الثلاثة.. وظلوا يتحدثون عنها منذ ثلاثين عاماً في المجلات والمؤتمرات... "[1].

وسوف نرصد هنا أقدم الإصدارات والنشرات والتحقيقات التي صدرت لهذا الكتاب، حتى يتبين لنا مدى العناية والاهتمام به في العصر الحديث:

كان المستشرق الفرنسي دومينيك سورديل D. Sourdel ، أول من حقق الكتاب، فقد أصدر القسم الأول من الجزء الأول المتعلق بمدينة حلب، وقام بنشره المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق سنة 1953 م.

ثم حقق الدكتور سامي الدهان الجزء الثاني من الكتاب بقسميه، وصدر عن المعهد الفرنسي بدمشق : صدر القسم الأول منه المتعلق بمدينة دمشق سنة 1956 م، وصدرت الأقسام التالية (جند دمشق – جند الأردن – جند فلسطين – المزارات في الأجناد الثلاثة) سنة 1962م.

([1]) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد عز الدين. تاريخ لبنان والأردن وفلسطين. تحقيق سامي الدهان. المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 1382هـ / 1962م.م [15].

ثم حقق يحيى زكريا عبارة الجزء الثالث (تاريخ الجزيرة والموصل)، وصدر بقسميه عن وزارة الثقافة بدمشق سنة 1978م. كما حقق الجزء الأول من الكتاب بقسميه : الأول المتعلق ب (تاريخ مدينة حلب)، والثاني ما اشتمل على (جند قنسرين وبلاد العواصم والثغور وبلاد حمص)، وصدر عن وزارة الثقافة في دمشق سنة 1991م. ثم أعادت وزارة الثقافة طباعة هذا الجزء بقسميه سنة 2006م، بمناسبة احتفالية " حلب عاصمة للثقافة الإسلامية".

وهكذا نكون قد عرضنا لتاريخ تحقيق هذا الكتاب المهم وسنوات نشره، ورغم هذه الجهود المبذولة في تحقيقه فإنه بحاجة إلى أن يصدر في طبعة واحدة رصينة تامة ؛ لأنه يشكل أهم تاريخ كامل لبلاد الشام، ليس من الناحية التقليدية فحسب، بل من الناحية المدنية والمعمارية. فهو يعد وثيقة للبحث التاريخي عن بلاد الشام ومدنها وخارطتها في القرن السابع الهجري.

(جند دمشق – جند الأردن – جند فلسطين)

الخارطة السياسية القديمة:

يتناول القسم الثاني من الجزء الثاني من كتاب "الأعلاق الخطيرة" جند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، وهو من أكثر أجزاء الكتاب أهمية وندرة، فـ".... لا يقع القارئ على تاريخ للبنان في مدنه وقراه، ولا يقع على تاريخ للأردن إلا كما جاء هنا، ولا يكاد يجد تاريخاً لفلسطين منذ الفتح الإسلامي حتى القرن السابع الهجري يحوي المدن والأصقاع، ويشمل الحديث عن الأماكن الإسلامية والمسيحية مثل ما أورد ابن شداد في كتابه هذا، فهو كتاب تاريخي يضم تاريخ فلسطين والأردن ولبنان على صعيد واحد"[1].

كانت بلاد الشام حتى عهد ابن شداد تخضع لنظام الأجناد في تقسيماتها منذ الفتح الإسلامي، والأجناد الشامية خمسة : (جند قنسرين وفيها حلب، وجند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين).

وجند دمشق كانت تضم (حوران وبصري وأذرعات وعمان وبعلبك وصيدا وبيروت وطرابلس، ومدن وقرى تتبعها). وجند الأردن وفيها (طبريا وبانياس وصفد وشقيف أرنون، والسواد، وبيسان وصور وعكا وحيفا). وجند فلسطين وفيها (الرملة وأرسوف والقدس والخليل ونابلس وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة).

(1) الأعلاق الخطيرة ج2 ق2. من مقدمة المحقق م[16].

(بن هورين).. وطلب المخطوطة من مكتبة ليدن:

في بحثهم اللاهث عن نقطة من التاريخ يستندون إليها في وجودهم عل أنهم دولة في أرض فلسطين، ومن واقع حملة قديمة – جديدة يقوم بها المستشرقون اليهود أو المتصهينون.. نشهد التسارعات (البحثية) و(التنقيبية) التي تفتعل البحوث والدراسات للتقليل من الأهمية العربية والإسلامية للقدس وتسطيحها، وتضخيم وجود يهودي – صهيوني، بل افتعال هذا الوجود، واستخراجه من تحت التراب أو من فوقه، أو من ورقة قديمة، أو من تأويل، أو من تحميل، أو من تآمر بحثي، كل ذلك يجعل ممارسات الكيان الصهيوني الدؤوبة والمستمرة لتهويد القدس شرعية و"مؤدلجة".

ذهب هؤلاء المستشرقون طولاً وعرضاً.. غير أنهم اهتموا اهتماماً أكبر بفترة (الحملات الصليبية)، وهي الفترة التي وضع ابن شداد فيها كتابه، وكانوا في ذلك يحاولون أن يجدوا دوراً لليهود في مقاومة الصليبيين في القدس، كل ذلك لإثبات أن القدس هي مدينتهم ؛ ولأنه لا دليل على مثل هذا الأمر فقد ذهبوا إلى تجريح الوجود العربي الإسلامي وتسطيحه، فذكر أحدهم (يمانويل سيفان) بأن المسلمين لم يأبهوا للاحتلال الصليبي للقدس ! وأصحاب هذا الزعم شرعوا في البحث والتنقيب كي يجدوا شيئاً يساعدهم على اختلاق حضور تاريخي لليهود في القدس، ليس ذلك فقط بل تسطير مقاومة أبداها (اليهود) في مواجهة الصليبيين.. تداني – أو تشابه – تلك المقاومة المستمرة التي أبداها العرب والمسلمون.. لكن اليهود لم يكن لهم أدنى حضور سياسي مذكور في تلك الفترة، بل لم تكن هناك مثل هذه المسألة الغريبة بالمرة !

وقد ركز هؤلاء المستشرقون على الناحية الديموغرافية للقدس، وأنها بقيت طوال العهود الإسلامية مدينة مهملة بلا هوية عربية إسلامية.. ورغم أن هذا الكلام ليس علمياً ولا يستحق الرد عليه، فإني أقول: إن البعد المعماري

في مدينة القدس وحده يشكل موسوعة في تاريخ العمارة والفن المقدسي الإسلامي والمسيحي أيضا، وبالاعتماد على المرجعيات التاريخية العربية فقط.

وهكذا، ونظراً لتأكيد المستشرقين على أهمية هذا الجزء من " الأعلاق الخطيرة " فقد حاولت الطلائع الأولى من المستشرقين اليهود الذين وصلوا إلى فلسطين – الحصول على نسخة منه بغية نشره. بدأت هذه المحاولات منذ سنة 1947م (قبل أن تبدأ التحقيقات العربية وغير العربية للكتاب) في جامعة القدس المحتلة، وهو ما حاوله المستشرق اليهودي (بن هورين).

وكانت الغاية من اهتمام المستشرقين المبكر بهذا الكتاب هي نشره وترجمته، ولكن هذا المستشرق (بن هورين) مات قبل أن يحقق أي شيء من هذا.

غير أننا نذهب إلى ما ذهب إليه د. سامي الدهان في مقدمة تحقيقه الجزء الثاني من الكتاب، من أن (بن هورين) كان يبحث عن مرجع يشير إلى وجود يهودى في هذه المناطق، فكأنه حسب أن يرى عند ابن شداد إحصاء بعدد اليهود في كل مدينة... غير أن ابن شداد لم يذكر في تاريخه أي شيء من هذه الإحصاءات، إذ إن منهجيته التاريخية كانت بعيدة كل البعد عن أن تهتم بهذا الأمر الطائفي للغاية والجزئي للغاية. ويبدو أن الأمر الذي حفز (بن هورين) للاهتمام بذلك هو أن بعض الرحالة اليهود كانوا يذكرون مثل هذه الإحصاءات، فلعله توسم أن يجدها عند مؤرخ مسلم مرموق مثل ابن شداد، لكنه لم يجد ذلك!

لا شك أن مدينة القدس غدت هدفاً أوروبياً مباشراً، استند بعنف إلى الشغف الديني، منذ سنة 495 هـ/ 1096م [1]، وعلى امتداد هذه الفترة

(1) استغرقت الحروب الصليبية ما بين سنتى (1096-1291م / 490-690هـ). وهى عبارة عن ثمانى حملات عسكرية سبقتها حملة شعبية.

نشط الرحالة والمستكشفون الأوروبيون الذين شكلوا في بعض الأحيان فرعاً استشراقياً رفد الخطة الأوروبية العامة في تحميل الشرق على مشروعاتهم!

كانت البنية الأوروبية غير المتكافئة والمستندة في حروبها على الشرق الإسلامي إلى سبب ظاهري وحيد " أدلج" لها مشروعية هذه الحروب وجعلها (مقدسة) – كان في هذه البنية عدة جيوب يهودية ما فتئت تظهر هويتها بعزلتها الشديدة (الجيتو)، وتظهر رغبة (استشراقية خاصة) داخل الرغبة الأوروبية العريضة، يحدوها بعنف، بل بوحشية مرضية (شغف ديني) وشغف أيضاً إلى بيت المقدس.

وكان (الجيب الأندلسي اليهودي) مندمجاً إلى حد حضاري وإنساني في المجتمع الأندلسي المسلم، حتى إن هؤلاء اليهود الأندلسيين هاجروا بعد سقوط غرناطة سنة 898 هـ/ 1492م هرباً من محاكم التفتيش، وانساحوا في البلاد العربية والإسلامية.

ويبدو أن رحلة الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي[1] التي ابتدأها سنة 561 هـ/ 1165 م من الأندلس إلى المشرق، وزار خلالها فلسطين، وذكر عدد اليهود في كل المدن المشرقية الإسلامية التي زارها، في عكا كان 200 يهودي، وفي اللد كان يهودي واحد ! وفي نابلس لم يكن يوجد بها يهود ألبتة، وكان في الرملة 300 يهودي – هي التي حفزت (بن هورين) للإهتمام بمخطوطات أخرى عله يجد من ورائها شرعية جديدة لحضور دولة الكيان الصهيوني الغريب الذي زرعه الأوروبيون في الشرق الإسلامي بناء على وعد بلفور سنة 1917.

(1) رحلة بنيامين التطيلى. ترجمها إلى العربية عزرا حداد – بغداد – 1945م.

خطأ قديم.. بدأ من كارل بروكلمان:

احتمل هذا الكتاب منذ أن كان مخطوطاً خطأ أضاف إليه تشتتاً غير تشتت مخطوطاته بأجزائها وأقسامها. وهذا الخطأ ناشئ من الخلط بين مؤرخين تشابها في الشهرة وتقاربا في الزمن.. فثمة مؤرخان حملا شهرة (ابن شداد)، والغريب أن كلاً منهما ألف كتاباً في السلطان الذي عاصره.

ابن شداد بهاء الدين الذي عاش في زمن صلاح الدين الأيوبي وكنفه وضع فيه "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، وهو كتاب مشهور وسيرة عرفها الناس، وبها غطى على ابن شداد عز الدين الذي توفي بعده باثنتين وخمسين سنة (ولد بهاء الدين بن شداد في حلب سنة 539هـ وتوفي بها سنة 632هـ أما عز الدين بن شداد فقد ولد بحلب سنة 613هـ وتوفي بالقاهرة سنه 684هـ).

عاش عز الدين بن شداد في زمن السلطان الظاهر بيبرس وألف فيه " الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر "، وهي – على ما أعتقد – ما تزال مخطوطة[1]. وحتى كارل بروكلمان – "توفي سنة 1956م – في كتابه الشهير " تاريخ الأدب العربي" خلط بين الاثنين، ونسب أحد أجزاء كتاب " الأعلاق الخطيرة "، ولعله الجزء المتعلق بتاريخ حلب لبهاء الدين بن شداد([2]).

مشاهد مقدسية من القرن السابع الهجري:

لن أجري مسحاً تاريخياً عن مدينة القدس، بل سألتقط بضعة مشاهد، منها مشاهد سياسية تاريخية، وقليل منها معمارية مدنية كتلك المتعلقة بالعمارة وتزويد المدينة بالمياه.

([1]) بل لعله المطبوع باسم "تاريخ الملك الظاهر، بتحقيق أحمد حطيط، ألمانيا الاتحادية، مطابع مركز الطباعة الحديثة 1403هـ / 1983م. انظر : د. صالحية : المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع 3/ 366 (المجلة).

([2]) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي. نقله إلى العربية د.عبد الحليم النجار. جامعة الدول العربية. دار المعارف –مصر– 1977م – ج6 ص12 و ص13.

مشهد عام:

يقدم ابن شداد وصفاً شاملاً للمدينة بوضعها وأبوابها، فهي مدينة ممتدة طولانياً على جبل، يصعد إليها من كل جانب، ويذكر لها أبواباً أربعة في الجهات الأربعة: في الغرب باب المحراب وعليه قبة داود، وفي الشرق باب الرحمة وكان يظل مغلقاً في زمن ابن شداد لا يفتح إلا في عيد الزيتون إلى مثله، وفي الجنوب باب صهيون، وفي الشمال باب الغراب. والداخل من باب المحراب يتوجه من الغرب إلى الشرق في درب ضيقة فيغدو في كنيسة القيامة، ويصف ابن شداد عمارتها بأنها من عجائب الدنيا[1].

أما الآن فلمدينة القدس سبعة أبواب مستعملة وثلاثة مغلقة، والسبعة المستعملة هي : باب العمود أو باب دمشق، وهو في منتصف الحائط الشمالي لسور القدس، ثم باب الساهرة ويقع في الحائط الشمالي لسور القدس، وباب الأسباط الذي يقع في الجزء الشرقي من السور، ثم باب المغاربة، وباب النبي داود (صهيون) وهما في الحائط الجنوبي لسور القدس، وباب الخليل في الحائط الغربي، والباب الجديد الذي افتتح في نهاية القرن التاسع عشر عند زيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني لمدينة القدس. والأبواب المغلقة ومنها باب الرحمة، والباب المزدوج، والباب المثلث.. ويعتقد أنها جميعا قائمة منذ العهد الأموي. إذن فقد تغير عدد الأبواب وأماكنها وتغيرت نسبياً أسماؤها.. وحديثاً أضاف الحضور التاريخي والسياسي الغربى اسماً رومانياً لبعض الأبواب ؛ فباب الساهرة عندهم هو باب هيرودوس، وباب الأسباط هو باب إسطفان.. !

([1]) المصدر السابق ص198-199.

المقدمة من مشهد قديم رفيع.. العهدة العمرية:

نقل ابن شداد النص التاريخي[1] المتعلق بفتح القدس عن البلاذري، ولعله أحد النصوص المشهورة : "قدم أبو عبيدة على عمرو بن العاص وهو يحاصر إيلياء سنة ست عشرة، فطلب أهلها من أبي عبيدة الأمان والصلح على ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج، على أن يكون متولي العقد لهم عمر بن الخطاب بنفسه. فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك. فسار عمر (رضى الله عنه) حتى نزل بالجابية من دمشق، ثم صار إلى إيلياء فأنفذ صلح أهلها، وكتب لهم بذلك، وذلك في سنة سبع عشرة ".

وهذا المشهد المقدسي القديم يورده ابن شداد لألقه الشديد، ذلك أنه يساوي بين كبرياء المنتصر وعدله، وهذا المشهد لا يتحقق إلا إذا كان صادراً عن تمكن وقوة عميقة تدعمها أصول حضارية وثقافية وأخلاقية، عندئذ يبدو الأمر مختلفاً فيحل الالتزام بالكلمة والميثاق محل الحروب والمعارك، وتحل الرقة والعدل محل القوة، مشهد فريد قد لا نراه في التاريخ إلا نادراً، لكننا رأيناه عندما نزل عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) إلى إيلياء (بيت المقدس)، لينفذ الصلح بنفسه.

حالة نموذجية جمعت السياسة إلى العدالة الرفيعة.. في هذه الحالة ارتحل الخليفة القوي العادل صاحب المنجزات التأسيسية والاستراتيجية عمر بن الخطاب صوب بيت المقدس لينجز الصلح بنفسه مع أهل إيلياء في نص عرف بـ" العهدة العمرية ". ولكن أين تكمن العدالة الرفيعة في هذا المشهد ؟ إنها تكمن أولاً، في حضور الخليفة نفسه ملبياً رغبة الأهالي، وذلك بعيد الأنتصار الكبير الذي حققه المسلمون في معركة اليرموك، وكان في المنطقة حينذاك عدد غير قليل من قادة المسلمين كان بإمكانهم القيام بهذه المهمة. وثانياً، في كون

(1) البلاذرى، فتوح البلدان، نشر فى مصر سنة 1901، ص145.

الخليفة رفض أن يصلي في كنيسة القيامة حتى لا يصبح ذلك تقليداً إسلامياً بعد حين، ويظلم المسيحيون في مكان عبادتهم. وثالثاً، الاحترام العميق لهذه المدينة الحضارية العريقة.

إذن فإنه يمكننا أن نصنف سلوك الخليفة عمر بن الخطاب في هذا المشهد بانه سلوك ينتمي إلى بنية سياسية منتصرة ذات محتوى ثقافي وأخلاقي جازم في عدله المطلق.

المشهد الأول: استرداد بيت المقدس وعمارة الفتح:

ينصب حديث ابن شداد على الأحداث التي حدثت بمدينة القدس قبيل الفتح الصلاحي للمدينة واستردادها من الصليبيين، فيبدأ من خارج أسوار القدس: نصب صلاح الدين يوسف بن أيوب المنجنيقات، "وسلط على سوره النقوب، مما يلي وادي جهنم – الذي يقع في الجنوب والجنوب الغربي للقدس – إلى أن تسلمه يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثمان وثمانين"[1]، يعني سنة 588 هـ.

ثمة رسالة[2] قيمة يوردها ابن شداد للقاضي عبد الرحيم بن علي البيساني المعروف بالقاضي الفاضل[3] في فتح القدس، وسوف أستند إليها لأنها تقدم شرحاً مفصلاً يتحول في النهاية إلى شرح معماري وفني. ولن أتناولها بشكل

([1]) الأعلاق، مصدر سابق ص 203..

([2]) وردت هذه الرسالة في الأعلاق، المصدر السابق من ص 204 إلى ص 210.

([3]) ولد القاضي عبد الرحيم بن علي البيساني المعروف بالقاضي الفاضل في عسقلان. وتوفي سنة 596 هـ، وردت ترجمته وأشعاره ورسائله في : (جريدة القصر وجريدة الدهر، للعماد الأصفهاني – قسم شعراء مصر، نشره أحمد أمين وشوقي ضيف واحسان عباس بمصر 1951م – 1/ 35 وما يليها)، ووفيات الأعيان لابن خلكان 1/ 284، وطبقات الشافعية للسبكي 4/ 253، وكذلك في الدارس في تاريخ المدارس، لعبد القادر بن محمد النعيمي، تحقيق الأمير جعفر الحسني بدمشق 1948 – 1 / 89، والأعلاق الخطيرة لابن شداد، الجزء المتعلق بتاريخ مدينة دمشق ص 309. وأما الرسالة التي نقصدها هنا والتي أوردها ابن شداد في هذا الجزء من "الأعلاق" فقد وردت في ترجمة صلاح الدين الأيوبي عند ابن خلكان في وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، طبعة القاهرة 1310 هـ، وعند القلقشندي في صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة مصر 1913 – 1918، 8/ 281، وعند مجير الدين الحنبلي في الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، طبعة المطبعة المهبة بمصر 1283هـ وقد كتب القاضي الفاضل هذه الرسالة بخطه ومن إنشائه، ووجهها إلى الخليفة على يد ضياء الدين بن الشهرزوري.

كامل، بل سأجتزئ منها بما يشرح حادثة الفتح، ذلك الشرح الميداني، فهو يذكر الأماكن والإجراءات... إلخ.

مخزن فوضوي للفرنجة ومرتزقتهم.. قبيل الاسترداد الصلاحي:

ليست المدينة إلا بأبعاد أساسية، منها البعد الديموغرافي، ذلك الذي يشي بحركيتها ومقدار ما يمكن أن يصدر– عنها من فعل عسكري أو مدني.

وهكذا عبر القاضي الفاضل عن هذه القضية في مبدأ رسالته، فهذا الوضع لا بد أن تكون الدولة الصلاحية قد بحثته بجدية خلال التحضيرات العسكرية وغير العسكرية لعمليات استرداد المدن والأراضي من الفرنجة القادمين من أوروبا، يقول : "ولما لم يبق إلا القدس اجتمع إليها منهم كل شريد طريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيستها إليه شافعتهم، فلما نزلها الخادم رأى بلداً كبلاد، وجمعاً كيوم التناد، وعزائم قد تألبت وتآلفت عل الموت فنزلت بعرصته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته"([1]).

يقدم النص السابق معلومة مهمة تؤكد أن مدينة القدس قبيل أن يستردها صلاح الدين (583هـ–1187م) كانت ملجأ فوضوياً للفرنجة والجيوش المرتزقة التي انضوت تحت شعارات دينية عريضة، فتذهب إلى الموت في سبيل ذلك. وبالرغم من تحول المدينة إلى معسكر شاسع مشبع بالرغبات التطرفية التي ولدتها وأججتها أوروبا في هذا الوقت المبكر، ودفعت بها خارج أرضها تنشر إرهاباً واسعاً في المشرق العربي الإسلامي، وذلك قبل زمن طويل جداً من ظهور هذا المصطلح وظلاله السياسية والإعلامية في مطلع القرن الحادي والعشرين.

وقد أدرك صلاح الدين ومنظومة دولته التردي والضعف الذي وصلت إليه هذه التجمعات الصليبية، كما أدرك أن هذه المساحة الجبلية الصغيرة (مدينة

([1]) الأعلاق، المصدر السابق ص204.

القدس) هي النقطة الوحيدة التي بقيت لهم وبقوا فيها، فما كان أمامه إلا الحصار والاستمرار في دك الأسوار، وإن هو إلا زمن لن يكون طويلا.

المعاينة والاستطلاع الميداني لمحيط المدينة:

ينتقل القاضي الفاضل بعد ذلك في رسالته ليسجل المعاينة الميدانية التي قام بها صلاح الدين ومستشاروه العسكريون والسياسيون – أو منظومات دولته – لمحيط مدينة القدس قبل أن يضع خطة الحصار وآليته، " فزاول البلد من جانب، فإذا أودية عميقة، ولجج وعرة غريقة، وسور قد انعطف عطف السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار، فعدل إلى جهة أخرى كان للمطامع عليها معرج، وللخيل فيها متولج"[1].

رسم هذا الاستطلاع كما ورد في النص طبوغرافية المنطقة المحيطة بالمدينة، وكذلك وضع تصوراً عن أشكال التحصينات ودرجة منعتها ومقاومتها، حتى يتم اختيار النقطة الأكثر ضعفاً والمواتية لبدء الحصار ومن ثم الهجوم، فقد أسفر الاستطلاع عن مدينة جبلية تحيطها الأودية العميقة، وحولها تحصينات رصينة مرتفعة مكونة من عناصر العمارة العسكرية التقليدية في ذلك الزمان (الأسوار والأبراج).

بدء الحصار وآلياته:

يتقدم النص في الحدث الذي يقوم بتسجيله على نحو متنوع ومثير إلى حد ما، مما يسمح لنا بمقاربات، من خلاله، تعطيه ملامح واضحة: " فنزل عليها وأحاط بها، قرب منها وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ويزاحمه السور بأكتافه، وقابلها ثم قاتلها، ونزل عليها ثم نازلها. وبرز إليها ثم بارزها، وحاجزها ثم ناجزها، فضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح، وصدع جمعها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الحد من الصفح، فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة،

(1) المصدر السابق ص205.

وقصدوا نظرة من شدة وانتظار النجدة، فعرفهم الخادم في لحن القول، وأجابهم بلسان الطول"[1].

ويظهر نص القاضي الفاضل أن من آليات الحصار الصلاحية للقدس التترس قريباً جداً من الأسوار ومن مرمى أسلحة الفرنجة، واستطلاع المدينة والتمكن منها نظرياً ثم موقعيا: (قابلها، نزل عليها، برز إليها، حاجزها)، وهي الأفعال الأولى من الجمل الثنائية التي ذكرها في النص السابق، وهي تدل على الفعل التالي التنفيذي الذي يليها : (قاتلها، نازلها، بارزها، حاجزها)، ولعلها دقة لفظية توازي دقة الفعل والتنفيذ... ومن ثم كسر التجمع الدفاعي المواجه.. وعن ذلك يميل الفرنجة إلى المناورة والخداع بطلب مهلة، وأما صلاح الدين فلم يكن ليميل معهم هذه الميلة، ولديه سجل طويل من تحقيق الأهداف المتوالية، وكان آخرها هو هذه المدينة المهمة.

(1) المصدر السابق ص205.

آلية الهجوم وأدواته.. وفسيفساء الحدث:

يواصل القاضي الفاضل نصه، وإذا كان الأسلوب الأدبي القائم على السجع قائماً بجلاء، فإن القاضي جعله وسيلة جذابة إلى درجة ليست مملة ولا ممجوجة، لفرز تفاصيل الحدث وتقديمه في جمل قصيرة واضحة يرصفها ليشكل منها فسيفساء الحدث، فكأنه يقدم لقطات متوالية من عدة نقاط متقاربة : "وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيهاً وحبالها، وأوتر لهم قسيها التي تضرب ولا تفارق سهامها نصالها، فصافحت السور فاذا سهامه في ثنايا شرفاتها سواك، وقدم النصر نسراً من المنجنيق يخلد إخلاده إلى الأرض، ويعلو علوه إلى السماك"[1].

كانت المنجنيقات هي الصف الأول من الجيش الصلاحي المواجه مباشرة لأسوار القدس، وحينذاك بدت كم هي صغيرة هذه السهام فوق لوحة السور والأبراج. وإن النص ليشف عن وصف دقيق لآلية عمل المنجنيق ومقذوفاته التى تعلو إلى ارتفاع شاهق لتهبط بتسارع كبير فوق هدفها.. فتبدو من أجزاء هذه الآلة العسكرية من زمن الدولة الصلاحية (العصي – الحبال – الاوتار – القسي – السهام – النصال)، ونلاحظ الشرفات بوصفها عنصراً معمارياً يدخل في تكوين السور والأبراج.

(1) المصدر السابق ص205-206.

نقب السور ودك حجارته:

يسير حدث فتح القدس بصورة متنامية، ويحدث الانتقال من الحصار إلى الهجوم، ثم انهيار التحصينات ودخول المدينة : "فشج مدارع أبراجها، وأسمع صوت عجيجها صم أعلاجها، ورفع مثار عجاجها، فأخلى السور من السيارة والحرب من النظارة، فأمكن النقاب أن يسفر للحرب النقاب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنملة، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه وباستقالته، إلى أن كادت ترق لمقالته، وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن يبرح الأرض"[1].

أعتقد أن أسلوب النص، وإن كان يبدو مصنوعاً أو متكلفاً، هو إلى الدقة أقرب، وإنما يبقى لكل زمن طرائقه في التعبير، ولكل كاتب أسلوبه، ويمكن أن نطلق على هذا الأسلوب في الكتابة ابتداء : الأسلوب التأريخي الكلاسيكي إن أحببنا امتطاء القالبية المصطلحية الغربية، فالكاتب في هذا الأسلوب يشكل نصه تشكيلاً رصيناً مليئاً قوياً، وهو بالعمق أسلوب أدبي، ألا تري قوله - على سبيل المثال – : فاستخرج من حجارة السور (حنيناً ورقة).

وعلى كل فإن أسوار القدس بدأت بالتداعي، وكان في هذا المشهد سقوط أبراج السور سقوطاً مريعاً بصوت هائل وانتثار غبار الانهيار والتفتت.. وهذا الضجيج الصوتي والهوائي والخطر أبعد السائرين والناظرين من الفرنجة فوق الأسوار، وحدثت فجوة في السور ودكت الحجارة حتى تحولت إلى شكلها الترابي الأول، ولعل النقاب (أداة من المنجنيق) هي التي تابعت تكسير الصخور من خلال حديدة كبيرة مزودة بأسنان مدببة (أنياب). ولا ننسى

([1]) المصدر السابق ص206.

مقدار المرح في هذا النص، وهو ما يدل على قوة تعبيرية تعكس ثقة وهدوءاً ويقيناً وتمكناً عسكرياً.

دخول القدس.. ومفاوضات التسليم:

هذا الحصار الذي ظهرت فيه المنجنيقات وظهرت دقة تنفيذه، فتح باباً إلى المدينة : "وفتح من السور باباً، سد من نجاتهم أبوابا، وأخذ يفت في حجره، فقال عنده الكافر : يا ليتني كنت تراباً، فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور، كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور"([1]).

وهي ليست مفاوضات بالمعنى الدقيق، بل محاولات من قبل الفرنجة للتقليل من الخسائر والقتلى.. وقد طلب ذلك من المسلمين قائدهم (ابن بارزان !)، ولكن المسلمين كانوا دوماً مبتعدين عن العنف في كل مواجهاتهم التاريخية، وكانت هذه إحدى المرات التي اشتهرت بذلك، وبالفعل فإن الأمراء في الجيش الصلاحي أشاروا إلى الابتعاد عن العنف وحقن الدماء لأن الفتح قد تم لهم.

([1]) المصدر السابق ص207، ص208. وكان القائد العسكرى الصليبى فى القدس عند الفتح الصلاحى يدعى: غى دى لوزينيان.

الشكل المعماري للقدس حين الفتح الصلاحي – نص في تاريخ العمارة:

يبدو أن الاهتمام بالمدينة وتكوين نص يصفها ليؤرخ لها، شكل اهتماماً محورياً لكل من ابن شداد والقاضي الفاضل، والأخير يصفها حين انتزعت من الفرنجة: "حموها بالأسل والصفح، وبنوها بالعمد والصفاح، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاسبتارية منها كل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه ولا ينطرد لآلاؤه، قد لطف الحديد في تجزيعه، وتفنن في توشيعه، إلى أن صار الحديد – الذي فيه بأس شديد – كالذهب الذي فيه نعيم عتيد، فما ترى إلا مقاعد كالرياض، لها من بياض الترخيم رقراق، وعمداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق"[1].

وأقيمت أول صلاة جمعة في المسجد الأقصى في الرابع من شعبان من سنة الفتح نفسها[2]. والأسل والصفح هي الرماح والسيوف، وأما العمارة فكانت رفيعة ومنمقة، فتشكلت من الأعمدة والجدران التي كسيت بالحجر الرقيق العريض الأبيض (الصفاح)، وكانت هذه المواد تتردد في كل التكوينات المعمارية التي أقامها الصليبيون في القدس. واستخدمت مادة الرخام على نطاق واسع. كما يشير النص إلى استخدام الحديد المشغول على نحو واسع، فامتدت إليه إيحاءات زخرفية مثلما امتدت إلى تيجان الأعمدة، فخرجت الأوراق و الازهار من صمت الحجر، وحولت الأعمدة إلى أشجار، إلى كائن حي مصدر للجمال.

علينا أن نشهد بقوة هذا التجرد والعدل عند هذا القاضي الذي دعاه إلى وصف (عمارة الأعداء) هذا الوصف الراضي الرائق، فكشف بذلك عن نفسية سوية نقية، خالية من العقد والتطرف، تنظر إلى العمارة نظرة مشبعة بتحسس

([1]) المصدر السابق ص208–ص209.

([2]) المصدر السابق ص209.

الجمال والبحث عنه، بعيداً عن أي أغراض أو افتعال أو توتر، وهي حقيقة رافقت التاريخ العربي الإسلامي العسكري والحضاري، فكان أقرب إلى الرحمة والعدل مع الأعداء والخصوم في السلم والحرب.

قدس ما بعد الفتح.. ودويلات الأمراء الصلاحية.. عودة الصليبيين:

بعد الفتح أقطع صلاح الدين البلاد بين أولاده، وكانت القدس لعز الدين جرديك النوري[1].

كان من هؤلاء الأمراء العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان أخو الناصر صلاح الدين، وكانت له الديار المصرية. ثم اتفقوا على أن تبقى فلسطين للعزيز، والأردن للأفضل، وعاد العزيز إلى مصر([2]). ثم تحدث خلافات جديدة، فعندما ملك الملك العادل مصر أقطع دمشق والأردن وفلسطين لولده الملك المعظم شرف الدين عيسى، واستمر ذلك إلى حين وفاة الملك العادل سنة 615هـ، وخلال هذه الفترة نفسها وصل الصليبيون إلى دمياط وحاصروها، فطلب الملك الكامل أخو الملك المعظم صاحب فلسطين من أخيه أن يعطيه القدس وكوكب والطور ليعطيها للفرنج مقابل دمياط[3] ! ثم حدثت المفاوضات بين الملك الكامل والصليبيين، وكانوا قد وصلوا إلى عكا، وقائدهم فردريك، فطلب من الملك الكامل أن يسلمه القدس وجميع ما فتحه صلاح الدين[4].

وبعد أن تشاور الملك الكامل مع أمرائه سلم القدس إلى الإمبراطور الصليبي، وكان ذلك سنة 626 هـ، وانسحب هو وجيشه وأمراؤه إلى تل العجول بين عكا والعائدية. وتبقى القدس بيدهم إلى أن يتوفى الكامل بدمشق سنة 635 هـ، وتغدو دمشق بيد الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود ابن الملك العادل، وتحصل بينه وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك

([1]) المصدر السابق ص221. وهو الأمير عز الدين جرديك صاحب القدس، من مماليك السلطان نور الدين ولقبه النورى، صحب أسد الدين شيركوه إلى مصر.

([2]) المصدر السابق ص222.

([3]) المصدر السابق ص223.

([4]) المصدر السابق ص223.

الكامل مقايضات، وهذه المرة مقايضة دمشق بسنجار ! فيصل دمشق، ثم نابلس سنة 637هـ، ويقبض الملك الناصر على الملك الصالح ويحبسه في الكرك، ثم يجمع جيشاً عظيماً يحاصر به القدس من جديد في السنة نفسها.. وكان الفرنج قد قاموا بتحصينات إضافية في أسوار القدس، فأقاموا برجاً جديداً أطلقوا عليه اسم (برج داود) وحصنوه، لكن الملك الناصر دكه بالمنجنيقات، وفتح القدس مجدداً[1].

([1]) المصدر السابق ص224-225.

رسالة الناصر إلى المستنصر بشأن القدس.. رسالة في تكنولوجيا العمارة :

الناصر فاتح القدس ثانية (الناصر داود بن عيسى)، والمستنصر هو الخليفة العباسي المستنصر بالله أبو جعفر المنصور الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين، توفي سنة 640هـ، وهو الخليفة العباسي قبل الأخير، ويبدو أن هذا الخليفة كان متنوراً ومختلفاً وإن كان في زمن صعب ومتشابك، فغدت بغداد فى عهده مدينة عظيمة، وهو الخليفة الذي بنى المدرسة المستنصرية الشهيرة.. لكن التتار داهموا بغداد في عهده أيضا.

وأما هذه الرسالة المهمة فقد ذكر ابن شداد أن الناصر كتبها بيده وهي من إنشائه، وكونه فعل ذلك بنفسه إنما يدل على أمر ذاتي وأمر عام بآن معا: الأمر الذاتي هو غبطة وفرحة عارمة سكبت الحماسة في قلب الناصر ليكتب (رسالة الفتح) إلى الخليفة المتميز (المستنصر) في زمن اجتمع فيه فوق أرض المشرق العربي الصليبيون والتتار، وأما الأمر العام فهو أنه كتب له هذه الرسالة ليعلمه بأن الجناح الغربي من دولة الخلافة غدا مؤمناً ومسيطراً عليه بمدينته المركزية (القدس) التي بقيت سلطتها القائمة تدل على الوضع والحالة السياسية القائمة في بلاد الشام كلها.

وبعد مقدمة الرسالة الرصينة يبدأ الناصر بإطلاع الخليفة على وضع مدينة القدس من خلال تحليله للأحداث : ".. طالع المقام الشريف بأمر الهدنة وانقضاء مدتها، وانفساخ عقدتها، وعند ذلك أخلى الفرنج – خذلهم الله – القدس الشريف من سكانه، وانتقل كل منهم عن وطنه إلى ما صيره من أوطانه، وأقام به كند من كنودهم – جمع كند أي (كونت Conte): تخريج عربي للكلمة استخدمه المؤرخون العرب، وهو أمير الجيش ومقدم من جنودهم - وهو فارس مشهور من فرسانهم كان قد عمر قلعة القدس في مدة الهدنة

وحصنها، وملأها بالعدد والآلات وشحنها، ووصلها ببرج يقال له "برج داود" النبي عليه الصلاة والسلام ابتناه لنفسه مسجداً، واتخذه لخلوته معبدا"[1].

وأهم ما ذكر في الرسالة هو التطورات المعمارية العسكرية التي أحدثها الفرنجة في المدينة، من إعادة ترميم القلعة، وبناء برج عال على الأسوار، ووصله بالقلعة بوساطة نفق. ومما يلفت الانتباه أن الناصر يتابع بعد ذلك وصف البرج كأنه المهندس أو المعماري : "وهو برج عظيم المقدار والحجم. مبار في المنعة الجبل.. قد بني بالصفاح والعمد... وهو من أسفله إلى ثلثه قد صب فيه الحجر والكلس صباً. وردم بقوة... "[2]. وهو إذ يقدم هذا الوصف القوي الجليل فإنما ليذكر بعد قليل كيف أنه استطاع تدمير هذه الأسوار واختراق مناعاتها وحصاناتها، والانتصار على الجموع الرهيبة التي احتشدت له خلف الأسوار وقاتلته[3].

غير أنا لنا قراءة إضافية في هذا النص، وهي القراءة المدنية أو المعمارية، من حيث مواد البناء وآلية التعمير : فقد كان من مواد البناء المذكورة في الرسالة الملكية : الصفاح، وهي البلاطات الحجرية الرقيقة التي تستخدم في التكسية الخارجية، ومن العناصر المذكورة أيضاً (الأعمدة)، ويشرح الملك الناصر أن البرج تشكل من أساس ذي ارتفاع كبير جداً وصل إلى ثلث العمود المتشكل من الكلس المغموس فيه قطع من الحجر، الذي لسيولته ولدونته تم صبه صباً بغرض تنفيذ أساس مليء متجانس وصلب وكبير الأبعاد. ويشرح الدائرة الخارجية للبرج بتشكلها من تناوب الأعمدة والجدران إلى جرى تكسبها بذلك البلاط الرخامي الرقيق والمتين (الصفاح).

([1]) المصدر السابق ص226-227.

([2]) المصدر السابق ص227.

([3]) المصدر السابق ص227-229.

ويتابع الملك الناصر في رسالته شرح الآلية التي اتبعها في دك الأسوار المحصنة المجددة، فقد نصب صفاً طويلاً ومتقدماً من المنجنيقات، وكان في جيش الناصر فريق اسمه (النقابون) متخصصون بنقب الأسوار والآليات اللازمة لذلك، وفريق اسمه (الزراقون) متخصصون بتحضير القنابل المشتعلة وإرسالها إلى الأسوار والأستار[1]. ويسجل الناصر في رسالته الملكية كيف استمر الهجوم والاقتحام حتى تجسد الفتح : " وأخذ العبد القلعة وتسلمها، وافترع ذروتها العليا وتسنمها، وتبرجت له أبراجها المصونة وتجلت... "[2].

وأما العبد فهو الملك الناصر.. وأما القلعة العروس المتجلية فهي لب القدس ومركز قيادتها. ولا يفوت الناصر ذكر مبادئ سرت في الحضور العسكري العربي الإسلامي، تلك مبادئ الرحمة واللين والإنسانية، وهو ما حدث حقاً بعيد فتحه القدس، حين لجأ عدد من أفراد جيش الفرنجة إلى (برج داود) في سور القدس خوفاً وطمعاً بالخروج بأرواحهم وأسلحتهم. غير أن الناصر يسجل في رسالته أنه لم يوافق على ذلك، بل وجه النقابيين لإيجاد نقوب في جدران البرج ومن ثم إحراقه من الداخل، فلما وجد اللاجئون ذلك طلبوا الخروج بأرواحهم فقط، فأخلي سبيلهم[3].

وبعد ذلك كأنه يسائل الخليفة أو يستشيره بين أن يهدم القلعة أو يبقيها موئلاً للمسلمين[4]. وأما برج داود فقد اتخذ فيه قراراً بأن " يغض من طرفه ويجدع أنفه، ويقلل من ارتفاعه، ويسهل من امتناعه، ويجعله مسجداً للركوع والسجود، لا معقلاً للجموع والحشود، ومعبداً يلتزم بمزاره، لا حصناً يعتصم بأسواره... "[5].

([1]) المصدر السابق ص33

([2]) المصدر السابق ص230.

([3]) المصدر السابق ص230.

([4]) المصدر السابق ص231-231.

([5]) المصدر السابق ص233.

والناصر هنا ينهي الحالة العسكرية لمدينة القدس ويحولها إلى مدينة (مدنية)، ويجسد من خلال ما ذكره في رسالته بضعة مبادئ كانت– باعتقادي – تشكل الإطار العام للهوية المعمارية الإسلامية، كان في هذه الهوية الابتعاد عن التطاول والارتفاعات الفارعة في البناء.

ويمكن أن نلاحظ بسهولة كيف أن البناء الوحيد المرتفع في المدينة العربية والإسلامية القديمة هو (المئذنة).. فليس لبناء بحد ذاته تكبر وترفع.. والملك الناصر يريد أن يغض من طرف (البرج) وأن يجدع أنفه، وفي النهاية يريد أن يحوله إلى مسجد في مدينة حقيقية وليس إلى تحصين عسكري في معسكر. وبهذه المبادئ المعمارية الإنسانية يختم الناصر رسالته إلى الخليفة العباسي المستنصر.

ثم.. بيبرس وعمارة في القدس:

بقيت القدس بيد الملك الناصر حتى حدثت دورة جديدة من الاتفاقات والمهادنات بين أمراء الأيوبية والفرنج.. فدخل الفرنج القدس مجدداً، وبقي الأمر كذلك حتى الفتح الخوارزمي للمدينة بالاتفاق مع الملك الصالح نجم الدين، وهو الفتح الثالث للقدس في فترة الحملات الصليبية سنة 642هـ... لكن ثمة انتصاراً عريضاً يجتاح المشرق العربي حين ينكسر الاجتياح التتري في عين جالوت سنة (658هـ-1259م)، ويكون موقع المعركة في تخوم القدس، وتكون القيادة لمظفر الذين قطز، وتغدو البلاد في النهاية بما فيها القدس في سلطة السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس الذي سرعان ما يبدأ بعمارتها، ففي سنة 659هـ يضع بيبرس خطة مالية ومشروعات للاعتناء بعمارة الحرم النبوي في المدينة المنورة والقدس.. لكنه اهتم أيضاً بالعمارة الخدمية التي تعيد للمدينة حيويتها الاجتماعية ورونقها الحضاري، فكان من التكوينات المعمارية التي بنيت في عهده الخان الذي جعله خارج المدينة ووراء أسوارها، ووضع له باباً نقله من القاهرة، وبنى أيضاً فرناً وطاحوناً.

مشهد (زيارات القدس):

يورد ابن شداد مصطلح (الزيارات) للتعبير عن العمارة المهمة دينياً التي عكف الناس على زيارتها، ولعله مصطلح مستحدث في زمن ابن شداد، وقد يكون ذلك بسبب نشوء حالة كثيفة من العمارات التي تزار.

أولى الزيارات التي يذكرها الصخرة المشرفة، وبعد أن يشرح قداستها وما عرف عنها، يقدم وصفها الهندسي وأبعادها : "وعلوها مقدار ذراعين، ودائرها يزيد على أربع أذرع، وتحت القبة مغارة الأرواح، ذكروا أن أرواح المؤمنين

يجمعها الله فيها، وينزل في هذه أربع عشرة درجة، ويقال إن بهذه المغارة قبر زكريا عليه الصلاة والسلام "[1].

ويذكر أن الرواق المحيط بالصخرة يقوم على ستة عشر عموداً رخامياً، وثمانية أركان لها أربعة أبواب من الحديد، ويحيط بالصخرة نفسها درابزين من الحديد ارتفاعه قامتان.

ويعد نص ابن شداد المختصر عن الصخرة مهماً ؛ لأنه وصف الصخرة في زمن الاحتلالات الصليبية المتوالية والفتوحات الأيوبية المتوالية أيضاً، فهو يقدم عمارة إسلامية من القرن الهجري الأول تحمل دلالة عظمى... فكل الاختبارات الأثرية التي أجريت على عمارة القبة أكدت أن عمارة الصخرة بكامل أساساتها وجدرانها الخارجية هي من إنشاء الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (بدأ بناءها سنة 68هـ/ 688 م، وأكمله سنة 72هـ/ 691م)، وهي بناء متجانس لا يضم أي بقايا بناء قديم[2].

وما زال بناء القبة قائماً بشكله وواجهاته الأموية في ساحة الحرم القدسي جنوبي شرقي القدس، بجدرانه المثمنة الخارجية، وبالسقف المحيط بزنار القبة المائل باتجاه الجدران الخارجية. ومن العناصر المهمة في القبة تلك الفسيفساء : نثارات دقيقة من الزجاج والحجر والصدف الخضراء والزرقاء على خلفية جدارية ذهبية، تلك الزخرفة التجريدية الرفيعة تشكل خطاً منسجماً رفيعاً في تاريخ الفن الإسلامي الخالص والمبكر.

([1]) المصدر السابق ص286.

([2]) انظر:

- ريتشموند، قبة الصخرة المشرفة، أكسفورد، 1924.
- كرسول، فن العمارة الإسلامية المبكرة، أكسفورد، 1969.
- الموسوعة الفلسطينية، هيئة الموسوعة الفلسطينية، ط1، مج3، دمشق، 1984.

ثم ينطلق المؤرخ مباشرة إلى المسجد الأقصى، ويذكر أن محراب عمر بن الخطاب لم تغيره الفرنج ([1])، ومن قبة الأقصى يبدأ ويخبر عن آخر تجديداتها المعمارية أنها تمت سنة 426هـ في عهد الإمام ابن العزيز (الظاهر لإعزاز دين الله) صاحب مصر.. والقبة نفذت تكسيتها بالفصوص المذهبة، وكذلك الكتابة والنقوش، ويذكر ابن شداد أنها بقيت كما هي لم تغيرها الفرنج. والحق ما ذكره ابن شداد عن هذا المسجد الذي بني للمرة الأولى في عهد عبد الملك بن مروان في سنة (72هـ/ 691م). وثمة قول آخر أن الذي بناه هو الوليد بن عبد الملك. وعلى كل حال هو من عمارة القرن الهجري الأول أيضاً مثل قبة الصخرة، غير أن معالمه تغيرت مرات عديدة.. ومع الاحتلالات الصليبية أقام الفرنجة في جانب منه كنيسة وفي الجانب الآخر مقراً للاسبتارية[2] ومستودعاً للأسلحة فى جهته الغربية. ومع التحرير الصلاحي للقدس أعيد بناؤه، وجدد المحراب، ووضع المنبر النوري الشهير الذي صنعه نور الدين زنكي في حلب (614 هـ/ 1231م).

وبشكل عام يعد الشكل الحالي للمسجد الأقصى هو شكله الأيوبي، مساحته الداخلية (80 × 55)، وفيه سبعة أروقة : أوسط، وثلاثة في كل من الجانبين الغربى والشرقي، وما زالت الأروقة الغربية للمسجد محكمة وشامخة تمتد من الجنوب إلى الشمال، والقبة تتصدر بيت الصلاة، وللمسجد أحد عشر باباً. لقد ظل المسجد الأقصى يحتل مكانة سامقة لدى المسلمين، فقد استمر حتى 1967م مقراً للدرس ومنارة للعلم، ومنبراً للاحتفالات السياسية العربية والإسلامية.

([1]) المصدر السابق ص286.

([2]) الاسبتارية منظمة أسسها الصليبيون في السنة التي احتلوا فيها القدس (493هـ/ 1099م) جمعت بين الرهبنة والعسكرية، أنشأت المشافي للاعتناء بالمرضى والحجاج المسيحيين، وأصبح لها نفوذ واسع في جميع أوروبا. والداوية أو (فرسان الهيكل) مثل الاسبتارية.

ومن هذه الزيارات يذكر ابن شداد مغارة يقال لها مهد عيسى، وهى عند السور القبلي وأحد أروقة المسجد الأقصي[1].. وقبة السلسلة وهي شرقي قبة الصخرة وملاصقة لها، سداسية الرقبة، وهي أيضا عمارة أموية، وكانت تستخدم لحفظ أموال المسلمين كما هي الحال في قبة المال الموجودة في صحن المسجد الأموي في دمشق.

ويتابع عن أهم عمارات القدس: "كنيسة اليعاقبة، ويذكر أن بها بئراً يقال إن المسيح – عليه الصلاة والسلام – اغتسل منها، وآمنت السامرة على يده عندها"[2]. وحالياً مقر هذه الكنيسة في القدس (اليعقوبية أو السريانية الأرثوذكسية) في كنيسة مرقس. ومن الكنائس يذكر أيضاً كنيسة السليق، ويذكر مقولة كانت دارجة تفيد بأن السيد المسيح – عليه الصلاة والسلام – رفع إلى السماء من موقع هذه الكنيسة([3]). ويذكر أيضاً " كنيسة صهيون، يقال إن المائدة نزلت على عيسى والحواريين بها"([4]). ثم وادي جهنم، وبه قبر مريم أم عيسى – عليهما السلام – ينزل إليه في ست وثلاثين درجة، وفيه الأعمدة الرخامية المنيعة الصلبة([5]).

وخارج القدس زيارة أيضاً : (عين سلوان)، يقال إن ماءها مثل ماء زمزم، وأنها تخرج من تحت قبة الصخرة وتمر بالوادي جنوبي القدس[6]، وكانت (سلوان) قرية مجاورة لسور القدس من الجهة الجنوبية، ولا تبتعد عنه إلا بضعة أمتار، لكنها اليوم من أحياء القدس، وعيون مائها (عين أم الدرج – بركة

([1]) ذكر الداعية المسيحى يوستين مارتير أن مريم ولدت المسيح ووضعته فى مزود فى مغارة قريبة جداً من القرية. وفى سنة 330م بنى الإمبراطور قسطنطين الرومانى كنيسة فوق المغارة دعيت بكنيسة القديسة مريم، ثم أعاد بناءها جوستينان بشكلها الحالى وأصبحت تدعى كنيسة المهد.

([2]) المصدر السابق ص287.

([3]) المصدر السابق ص287.

([4]) المصدر السابق ص288.

([5]) المصدر السابق ص288.

([6]) المصدر السابق ص288.

سلوان – البركة التحتانية – بئر أيوب – عين اللوزة) المصدر الوحيد للمياه في القدس. ولعل البيوسيين أقدم من جر مياه سلوان عبر نفق إلى داخل مدينة القدس.

كانت تلك بضعة مشاهد مقدسية من لحظات القرن السابع الهجري، اعتمادا على مصدر كتب في ذلك القرن المليء بضجيج المعارك، حيث كانت القدس عاصمة تلك المواجهات وعاصمة ذاك القرن، فهي المدينة التي حملت أهم حدثين عالميين في تلك الفترة : الاندحار الصليبي وإيقاف الاجتياح المغولي... وكانت القدس في كلا الحدثين عربية وإسلامية في صنع الأحداث وفي تشكيل المدينة. ولقد لهث المستشرقون اليهود للإيحاء بأن القدس بقيت زمن الاحتلالات الصليبية مدينة ذات طابع عالمي (كوزمو بوليتي) !! فتلك بالنسبة لهم خطوة مهمة في مشروعهم الدائم لمحو الملامح العربية والإسلامية من وجه المدينة وروحها، إذ بالنسبة لهم لأن تكون القدس ذات طابع عالمي أو حتى بيزنطي – خير ألف مرة من أن تكون ذات طابع عربي إسلامي، لكنها كانت وستبقي عربية إسلامية، وسيبقى ذلك غصة في حلوقهم إلى ما شاء الله.